أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما... - الأنبياء: ٣٠ -

بقلم الدكتور: زغلول النجـار

في الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأزلية الكون بلا بداية ولا نهاية، وعدم محدوديته إلى ما لا نهاية، وسكونه وثباته(أي عدم حركته، على الرغم من حركة بعض الأجرام فيه)، بمعنى أن هذا الكون اللانهائي الساكن كان موجودا منذ الأزل، وسيبقى إلى الأبد، وهي فرية أطلقها الكفار والملحدون من بني البشر في محاولة يائسة لنفي الخلق، والتنكر للخالق سبحانه وتعالى، في هذا الوقت نزل القرآن الكريم موجها أنظار هؤلاء الجاحدين من الكفار والمشركين والوثنيين إلى طلاقة القدرة الإلهية في إبداع خلق الكون من جرم ابتدائي واحد، وذلك في صيغة استفهام توبيخي، استنكاري، تقريعي يقول فيه ربنا تبارك وتعالى:

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون (الأنبياء: ٣٠).

وهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة علي أن الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية، بدأ الله تعالى خلقه من جرم ابتدائي واحد مرحلة الرتق، وهو القادر على كل شيء، ثم أمر الله تعالى بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق مرحلة الفتق وتحول إلى غلالة من الدخان مرحلة الدخان، وخلق الله تعالى من هذا الدخان كلا من الأرض والسماء أي جميع أجرام السماء وما ينتشر بينها من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء، وقد جاء وصف المرحلتين الأخيرتين في الآية الحادية عشرة من سورة فصلت، والتي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى موبخا كلا من الذين كفروا بالله تعالى فأنكروا الخلق، أو أشركوا مع الله تعالى معبودا آخر:

قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين* ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين* فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم.(فصلت: ٩ - ١١).

وهذه الآيات القرآنية الكريمة في كل من سورتي الأنبياء وفصلت تعرض لخلق السماوات والأرض في إجمال وشمول وإيجاز، كما تعرض لعدد من الحقائق الكونية الأخرى، وتربط بينها وبين عقيدة الإيمان بالله الخالق، الواحد الأحد، الفرد الصمد، لأن عقيدة التوحيد تقوم على أساس من الحق الذي قامت به السماوات والأرض، وكل ما فيهما من صور الخلق، ولكننا سوف نقصر حديثنا هنا على الإشارات الواردة في تلك الآيات عن خلق السماوات والأرض، وقبل أن نفعل ذلك لابد من تأكيد حقيقة الدلالة العلمية للآيات الكونية الواردة في كتاب الله الخالق.

الدلالة العلمية للآيات الكونية في القرآن الكريم

من المسلمات أن الآيات الكونية لم ترد في كتاب الله الخالد من قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان، وذلك لأن التحصيل العلمي قد ترك لاجتهاد الناس، يجمعون شواهده جيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة، نظرا للطبيعة التراكمية للمعارف المكتسبة، ولمحدودية حواس الإنسان وقدرات عقله، ومحدودية كل من مكانه في بقعة محددة من الأرض وزمانه أي عمره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومع تسليمنا بهذا الفهم، وتسليمنا كذلك بأن الآيات الكونية التي أشار إليها ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق، وللاستشهاد على أن الله تعالى الذي أبدع هذا الخلق قادر على إفنائه، وعلى إعادة خلقه من جديد، كما تأتي هذه الآيات الكونية في مقام الاستدلال على وحدانية الخالق العظيم بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، وتتراءى هذه الوحدانية لكل ذي بصيرة في جميع جنبات الكون، وفي كل أمر من أموره، في السماوات وفي الأرض، في الأنفس وفي الآفاق، في كل سنة من سنين الكون، وفي كل ناموس من نواميسه، وفي كل جزئية من جزئياته من الذرة إلى الخلية الحية إلى المجرة، كما تتراءى في وحدة بناء الكون، ووحدة لبناته وتآصل عناصره التي ترد كلها إلى غاز الإيدروجين وفي وحدة كل من المادة والطاقة، وفي تواصل كل من المكان والزمان، وفي وحدة بناء الخلية الحية، وفي وحدة الحياة والممات والمصير، لكل حي.

وتتراءى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى في تعميم الزوجية على جميع المخلوقات من الأحياء والجمادات، حتى يبقى الخالق في علاه، متفردا بالوحدانية فوق جميع خلقه.

ومع تسليمنا بكل ذلك فإن القرآن الكريم يبقى كلام الله الخالق، الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم، وتعهد سبحانه وتعالى بحفظه باللغة نفسها التي أوحاه بها اللغة العربية فحفظ كلمة كلمة، وحرفا حرفا تحقيقا للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا تبارك وتعالى على ذاته العلية فقال عز من قائل:

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(الحجر:٩)

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وكان الكون من صنعته وإبداع خلقه، فلابد أن يكون كل حرف وكلمة وآية في القرآن الكريم حقا مطلقا، وأن تكون كل الإشارات الكونية فيه ناطقة بالحقيقة المطلقة للكون ومكوناته، ولو وعى المسلمون ذلك حق الوعي لكان لهم قصب السبق في الكشف عن العديد من حقائق هذا الكون قبل غيرهم من الأمم بقرون عديدة، وكان هذا السبق من أفضل وسائل الدعوة إلى دين الله الخاتم في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه.

(١) العلوم المكتسبة وخلق السماوات والأرض

للعلوم المكتسبة شواهد تؤيد فكرة الانفجار العظيم منها ما يلي:

(١) توسع الكون كدليل على الانفجار العظيم:

على الرغم من تأكيد القرآن الكريم الذي أنزل قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين حقيقة توسع الكون يقول الحق تبارك وتعالى:

والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (الذاريات:٤٧)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد بقي الفلكيون إلى مطلع العشرينيات من القرن الماضي مصرين على ثبات الكون وعدم تغيره
وفي السنوات من ١٩١٤ -١٩٢٥ م أثبت الفلكي الأمريكي ف.م سلايفر أن معظم المجرات التي قام برصدها خارج مجرتنا درب اللبانة تتباعد عنا وعن بعضها بعضا بسرعات كبيرة.
وفي سنة ١٩٢٩ م تمكن الفلكي الأمريكي الشهير إدوين هبل من تأكيد ظاهرة توسع الكون، وتوصل إلى الاستنتاج الصحيح أن سرعة تباعد المجرات الخارجية عن مجرتنا تتناسب تناسبا طرديا مع بعدها عنا، وفي سنة ١٩٣٤ م اشترك هو وأحد من مساعديه في قياس أبعاد وسرعات تحرك ٣٢ من تلك المجرات الخارجية بعيدا عن مجرتنا وعن بعضها بعضا.

من جانب آخر استطاع علماء كل من الفيزياء النظرية والفلكية تأكيد حقيقة توسع الكون بتوظيف القوانين الرياضية في عدد من الحسابات النظرية، ففي سنة ١٩١٧ م أطلق ألبرت إينشتاين نظرية النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية كقوة مؤثرة في الكون المدرك، وأشارت المعادلات الرياضية المستنتجة من تلك النظرية إلى أن الكون الذي نحيا فيه كون غير ثابت، فهو إما أن يتمدد وإما أن ينكمش وفقا لعدد من القوانين المحددة له، وجاءت هذه النتيجة على عكس ما كان يعتقد إينشتاين وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية، ولقد أصاب إينشتاين الذعر حينما أدرك أن معادلاته تنبئ " رغم أنفه " بأن الكون في حالة تمدد مستمر، فعمد إلى إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم الثابت الكوني ليلغي به تمدد الكون، ويؤكد ثباته واستقراره برغم دوران الأجرام التي يحتويها، وحركاتها المتعددة، ثم عاد إينشتاين ليعترف أمام سيل ملاحظات الفلكيين عن تمدد الكون بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمي اقترفه في حياته.
في السنوات ١٩١٧ -١٩٢٤ م قام الروسي أليكساندر فريدمان بإدخال عدد من التحسينات على معادلات إينشتاين، وقدم نموذجين لتفسير نشأة الكون يبدأ كل منهما بحالة متفردة تتميز بكثافة لا نهائية، وتتمدد منها إلى حالات ذات كثافة أقل.

وتحدث فريدمان عن انحناء الكون، وعن تحدبه تبعا لكمية المادة الموجودة فيه، فإن كانت تلك المادة أقل من قدر معين كمية حرجة وجب أن يستمر تمدد الكون إلى الأبد، وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مفتوحا، أما إذا كانت كمية المادة بالكون أقل من الكمية الحرجة غدت الجاذبية على قدر من القوة بحيث تحدب الكون إلى درجة تتوقف عندها عملية التمدد في لحظة معينة من المستقبل، عندها يبدأ الكون في الانطواء على ذاته ليعود إلى حالة الكثافة اللانهائية الأولى التي بدأ بها الكون، وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مغلقا.
وقد أثبت كل من وليام دي سيتر في سنة ١٩١٧ م وآرثر إدنجتون في سنة ١٩٣٠ م أن الكون كما صورته معادلات إينشتاين هو كون غير ثابت، ولكن تصور كل منهما للكون كان تصورا بدائيا، فبينما كان نموذج إينشتاين للكون نموذجا ماديا دون حركة، ونموذج دي سيتر حركيا دون مادة، جاء نموذج إدنجتون وسطا بين النموذجين بمعنى أن الكون بدأ بحالة ساكنة، ثم أخذ في التمدد نظرا لطغيان قوى الدفع للخارج على قوى الجاذبية، ولكن انطلاقا من فكر الإلحاد السائد في عصره اضطر إدنجتون إلى فرض ماض لا نهائي للكون ليتخلص من حقيقة الخلق، وشبح الانفجار الكبير والذي سماه بالبداية الكارثة.

في السنوات ١٩٣٢، ١٩٣٤ م اقترح ريتشارد تولمان نموذجا متذبذبا للكون يبدأ وينتهي بعملية الانفجار الكبير.
وأخيرا اقترح آلان جوت نموذج الكون المتضخم، والذي يقترح فيه أن الكون المبكر تمدد في أول الانفجار تمددا رأسيا سريعا جدا مع سطوع فائق. ثم أخذت معدلات التوسع في التباطؤ إلى معدلاتها الحالية،
ومن منطلق إنكار الخلق ينادي الفلكيون المعاصرون بفكرة الكون المفتوح أي الذي يتمدد إلى ما لا نهاية ولكن حسابات الكتل المفقودة تؤكد انغلاق الكون، هذا الانغلاق الذي سيقف بتمدده عند لحظة في المستقبل يعود الكون فيها إلى الانكماش والتكدس على ذاته ليعاود سيرته الأولى. وبالتدريج بدأت فكرة تمدد الكون إلى حد ما في المستقبل تلقى القبول من الغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية، وان بقيت أعداد منهم يدعون إلى ثبات الكون حتى مشارف الخمسينيات من القرن العشرين، ومن هذه الأعداد جامعة كنبردج المكونة من كل من هيرمان بوندي، وتوماس جولد، وفريد هويل. وقد قام هذا الفريق بنشر سلسلة من المقالات والبحوث في السنوات ١٩٤٦ م، ١٩٤٨، ١٩٤٩ م دفاعا عن النموذج الثابت للكون ثم اضطروا إلى الاعتراف بحقيقة تمدده بعد ذلك بسنوات قليلة، ومن عجائب القدر بهؤلاء الجاحدين لحقيقة الخلق، المتنكرين لجلال الخالق سبحانه وتعالى المنادين كذبا بأزلية العالم، أن يكون أحد زعمائهم وهو فريد هويل الذي حمل لواء الادعاء بثبات الكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستقراره وأزليته لسنوات طويلة هو الذي يعلن بنفسه في سخرية لاذعة تعبير الانفجار الكبير للكون وذلك في سلسلة أحاديث له عبر الإذاعة البريطانية في سنة ١٩٥٠ م ينتقد فيها ظاهرة تمدد الكون، ويحاول إثبات بطلانها، ثم جاء بعد ذلك بسنوات ليكون من أشد المدافعين عنها.
وكانت نظرية خلق الكون من جرم أولي واحد عالي الكثافة قد توصل إليها البلجيكي جورج لوميتر في سنة١٩٢٧ م وذلك في رسالة تقدم بها إلى معهد ماشوسيتس للتقنية، دافع فيها وفي عدد من بحوثه التالية عن حقيقة تمدد الكون، ولم تلق أبحاثه أي انتباه إلى أن جاء إدنجتون في سنة١٩٣٠ م ليلفت إليها الأنظار ومن هنا أطلق على لوميتر لقب صاحب فكرة الانفجار الكبير في صورتها الأولى.

(٢) بقايا الإشعاع الكوني كدليل على الانفجار العظيم:

في سنة١٩٤٨ م أعلن كل من جورج جامو وزميله رالف ألفر أن تركيز العناصر في الجزء المدرك من الكون يشير إلى أن الجرم الأولى الذي بدأ به الكون كان تحت ضغط وفي درجة حرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما، وعند انفجاره انتقلت تلك الحرارة إلى سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن ذلك الانفجار، وسمحت بعدد من التفاعلات النووية التي أدت إلى تكون العناصر الأولية من مثل الإيدروجين والهليوم.
وفي السنة نفسها١٩٤٨ م قدم كل من ألفر وهيرمان اقتراحا بأن الجرم الابتدائي للكون كان له إشعاع حراري يشابه إشعاع الأجسام المعتمة، وأن هذا الإشعاع تناقصت شدته مع استمرار تمدد الكون وتبرده، ولكن لابد أن تبقى منه بقية في صفحة السماء، إذا أمكن البحث عنها وتسجيلها، كانت تلك البقية الإشعاعية من أقوى الأدلة على بدء خلق الكون بعملية الانفجار الكبير.
وفي سنة١٩٦٤ م تمكن اثنان من علماء مختبرات بل للأبحاث وهما أرنو بنزياس وروبرت ويلسون بمحض المصادفة من اكتشاف تلك البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني على هيئة ضوضاء لاسلكية محيرة تفد بانتظام إلى الهوائي الذي كانا قد نصباه لغاية أخرى من جميع الجهات في السماء حيثما وجه الهوائي، وقدروها بثلاث درجات مطلقة "٢٧٠ درجة مئوية ".

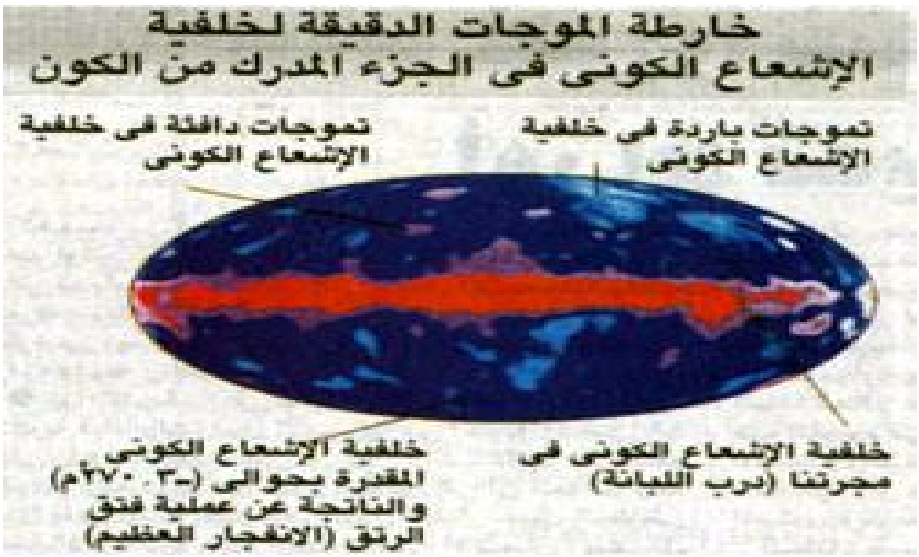

في الوقت نفسه كان كل من روبرت دايك وتلميذه بيبلز قد استنتجا من معادلاتهما الرياضية الفلكية أن النسب المقدرة لغازي الإيدروجين والهليوم في الكون تؤكد الكمية الهائلة من الإشعاع التي نتجت عن الانفجار الكبير وتدعم نظريته، ومع تمدد الكون ضعف هذا الإشعاع بالتدريج وانخفضت درجة حرارته إلى بضع درجات قليلة فوق الصفر المطلق "٢٧٣ درجة مئوية".
في سنة١٩٦٥ م قام كل من بنزياس وولسون بتصحيح قيمة البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني إلى٢,٧٣ من الدرجات المطلقة، وأثبتا أنها من الموجات الكهرومغناطيسية المتناهية في القصر، وتقدر قيمتها اليوم بأقل قليلا من قيمتها السابقة٢,٧٢٦ من الدرجات المطلقة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في سنة١٩٨٩ م أرسلت مؤسسة ناسا الأمريكية إلى الفضاء قمرا صناعيا لجمع المعلومات حول الإشعاع الحراري الكوني أطلق عليه اسم كوب وزود بأجهزة فائقة الحساسية أثبتت وجود تلك الأشعة الأثرية المتبقية عن عملية الانفجار العظيم.
وكان في هذا الاكتشاف التفسير المنطقي لسبب الأزيز اللاسلكي المنتظم الذي يعج به الكون والذي يأتي إلينا من مختلف أطراف الكون المدرك، والذي بقي على هيئة صدى لعملية الانفجار الكبير، وقد منح كل من بنزياس وولسون جائزة نوبل في سنة١٩٧٨ م على اكتشافهما الذي كان فيه الدليل المادي الملموس لدعم نظرية الانفجار الكبير، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة شبه المؤكدة، ودفع بالغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلى الاعتقاد بصحتها، وسبحان الخالق الذي أنزل في محكم كتابه من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:
أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء: ٣٠).
وبدء خلق الكون بعملية انفجار كبرى هو من دلائل طلاقة القدرة الإلهية لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلى تناثر المادة وبعثرتها ولا يخلف وراءه إلا الدمار، أما هذا الانفجار الكوني الفتق بعد الرتق فقد أدى إلى إبداع نظام كوني له تصميم دقيق محكم الأبعاد والعلاقات والتفاعلات، منضبط الكتل والأحجام والمسافات، منتظم الحركة والجري والتداخلات، مبني على الوتيرة نفسها من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته على الرغم من تعاظم أبعاده، وكثرة أجرامه، وتعقيد علاقاته، وانفجار هذه نتائجه لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير حكيم وتقدير مسبق عظيم لا يقدر عليه إلا رب العالمين، وقد أشار العالم البريطاني المعاصر ستيفن وهوكنج إلى شيء من ذلك في كتابه المعنون تاريخ موجز للزمن الذي نشره في كندا سنة١٩٨٨ م ولكن إشاراته جاءت على استحياء شديد نظرا لجو الإلحاد الذي يسود الغرب بصفة عامة في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه، والكتاب مملوء بالاستنتاجات المؤكدة لحقيقة الخلق، وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

القرآن الكريم وخلق السماوات والأرض

في الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأن الكون الذي نحيا فيه كان منذ الأزل، وسيبقى إلى الأبد، وأنه كون لا نهائي، أي لا تحده حدود، وأنه كون ساكن، ثابت في مكانه، لا يتغير، وأن النجوم مثبتة في السماء التي تدور بنجومها ككطعة واحدة حول الأرض، وأن الكون شامل للعناصر الأربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، وحول هذه الكرات الأربع تدور السماء بنجومها، وغير ذلك من الخرافات والأساطير، في هذا الوقت جاء القرآن الكريم مؤكدا أن الكون مخلوق له بداية، ولابد أنه ستكون له في يوم من الأيام نهاية، وكل مخلوق محدود بحدود لا يتجاوزها، ومؤكدا أن جميع أجرام السماء في حركة دائبة، وجري مستمر إلى أجل مسمى، وأن السماء ذاتها في توسع دائب إلى أجل مسمى، وأن السماوات والأرض كانتا في الأصل جرما واحدا ففتقهما الله(تعالى) فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلى الدخان الذي خلقت منه الأرض والسماء، وأن هذا الكون سوف يطوى ليعود كهيئته الأولى جرما واحدا مفردا ينفتق مرة أخرى إلى غلالة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسماوات غير السماوات التي تظلنا في حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة.

وقد لخص لنا ربنا(تبارك وتعالى) عملية خلق السماوات والأرض وإفنائهما، وإعادة خلقهما في صياغة كلية شاملة من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وذلك في خمس آيات من آي القرآن الكريم على النحو التالي:
(١) والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون(الذاريات: ٤٧).
(٢) أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء: ٣٠).
(٣) ثم استوى إلي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين(فصلت: ١١).
(٤) يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين(الأنبياء: ١٠٤).
(٥) يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار(إبراهيم: ٤٨).
وهذه الآيات القرآنية الكريمة تشير إلى عدد من حقائق الكون الكبرى والتي منها:
(١) توسع الكون منذ اللحظة الأولى لخلقه وإلى أن يشاء الله.
(٢) ابتداء خلق الكون من جرم أولي واحد(مرحلة الرتق الأول).
(٣) فتق هذا الجرم الأولي أي انفجاره(مرحلة الفتق الأول).
(٤) تحول المادة في الجرم الأولي عند فتقه إلى الدخان(مرحلة الدخان).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٥) خلق كل من الأرض والسماوات من الدخان الكوني(مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).
(٦) حتمية عودة الكون بكل ما فيه ومن فيه إلى جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأولي الذي ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثاني أو طي السماء أو الانسحاق الشديد للكون).
(٧) حتمية فتق هذا الجرم الثاني أي انفجاره(مرحلة الفتق للرتق الثاني).
(٨) حتمية تحول الرتق الثاني بعد فتقه إلى غلالة من الدخان الكوني.
(٩) إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التي تظللنا اليوم وبداية رحلة الآخرة.

وهذه الحقائق الكونية لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في القرن العشرين، حين توصل العلم الحديث إلى إثبات توسع الكون في الثلث الأول من ذلك القرن، ثم اندفع بهذه الملاحظة الصحيحة إلى الاستنتاج المنطقي أننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن، فلابد أن تلتقي جميع صور المادة والطاقة المنتشرة في الكون، كما يلتقي كل من المكان والزمان، وجميع ما في الكون من موجودات في نقطة واحدة تكاد تقترب من الصفر أي العدم على هيئة ابتدائية للكون أو(مرحلة الرتق)، وأن تلك الهيئة الأولية كانت متناهية في الصغر، كما كانت بالقطع في مستوى من الكثافة ودرجة الحرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما فانفجرت(مرحلة الفتق)، ونتج عن هذا الانفجار الكوني العظيم(الفتق بعد الرتق) تحول هذا الجرم الأولي للكون ـ المتناهي في ضآلة الحجم وضخامة الكثافة وشدة الحرارة ـ إلى غلالة من الدخان(مرحلة الدخان الكوني) الذي خلق الله(تعالى) منه الأرض والسماء(مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).
ويتوقف العلم المكتسب عند ملاحظة أن عملية التوسع الكوني لا يمكن لها أن تستمر إلى ما لا نهاية، وذلك لأن قوة الدفع إلى الخارج الناتجة عن الانفجار الكوني التي بدأت بعنف بالغ حتى اليوم في تناقص مستمر، وسوف يؤدي هذا التناقص التدريجي في سرعة توسع الكون إلى الوصول به إلى مرحلة تتغلب فيها قوى الجاذبية على قوى الدفع إلى الخارج، فيبدأ الكون في الانكماش والتكدس على ذاته حتى يعود إلى حالة مشابهة تماما لحالته الأولى التي ابتدأ منها خلق الكون(مرحلة الرتق الأولى)، وتعرف هذه المرحلة المستقبلية باسم مرحلة الرتق الثانية[أو الرتق بعد الفتق أو طي السماء أو مرحلة الانسحاق الشديد للكون كما يحلو لبعض الفلكيين المعاصرين تسميتها]. وقد أخبرنا ربنا(تبارك وتعالى) من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أنه(سبحانه) قد تعهد بإعادة السماوات والأرض إلى سيرتها الأولى وذلك بقوله في محكم كتابه(عز من قائل):
يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين(الأنبياء:١٠٤)،
وليس من قبيل المصادفة أن ترد الآيتان رقم(٣٠) وهي المتعلقة بخلق الكون(الفتق بعد الرتق)، ورقم(١٠٤) وهي المتعلقة بإفناء الكون(الرتق بعد الفتق) في سورة واحدة وهي سورة الأنبياء.
ولولا أن الله(تعالى) قد تعهد بإعادة خلق أرض غير أرضنا، وخلق سماء غير سمائنا، وأخبرنا بذلك من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة في محكم كتابه وذلك بقوله(عز من قائل):
يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار(إبراهيم:٤٨).
ما كان أمام العلوم المكتسبة من سبيل إلى معرفة ذلك.
هذه الحقائق الكونية الكبرى في خلق السماوات والأرض، لم يستطع الإنسان الوصول إلى إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت نظرية فلكية باسم نظرية الانفجار العظيم

وهذه النظرية هي الأكثر قبولا عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول الحق تبارك وتعالى.
أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء:٣٠).
والرتق: في اللغة عكس الفتق، لأن الرتق هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعيا أو صناعيا، يقال رتقت الشيء فارتتق أي فالتأم والتحم. والفتق: لغة هو الفصل والشق والانشطار.
والمعنى الواضح لنا من هذه الآية الكريمة أن السموات والأرض كانتا في الأصل شيئا واحد متصلا، ملتنما، وملتحما، ففتقه ربنا تبارك وتعالى بأمر منه سبحانه إلى الأرض التي نحيا عليها، وإلى سبع سماوات من فوقنا.
والقرآن الكريم هنا يعطي الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكوني العظيم، ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة في صفحة السماء لتؤكد في منتصف القرن العشرين صدق ما قد أنزله الله تعالى في آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم من قبل ألف وأربعمائة من السنين.
هذا السبق القرآني بحقيقة الفتق بعد الرتق يجعلنا نرتقي بنظرية الانفجار الكوني العظيم إلى مقام الحقيقة، ونكون هنا قد انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب، وليس العكس، والسبب في لجوئنا إلى تلك النظرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية رقم ٣٠ من سورة الأنبياء هو أن العلوم المكتسبة لا يمكن لها أن تتجاوز مرحلة التنظير في القضايا التي لا تخضع لحس الإنسان المباشر أو إدراكه المباشر من مثل قضايا الخلق والإفناء وإعادة الخلق خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان وصدق الله العظيم إذ يقول:
ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا(الكهف: ٥١).
كذلك فإن نظرية الانسحاق الكوني العظيم يرتقي بها إلى مقام الحقيقة قول ربنا تبارك وتعالى:
يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين(الأنبياء: ١٠٤).
هذا السبق القرآني بالإشارة إلى حقيقة الفتق بعد الرتق أو ما يعبر عنه بالانفجار الكوني العظيم، وإلى حقيقة توسيع السماء أو تمدد الكون، وإلى حقيقة الخلق من الدخان، وإلى حقيقة الرتق بعد الفتق طي المساء أو الانسحاق الكوني العظيم، وإلى حقيقة إعادة خلق أرض غير الأرض وسماوات غير السماوات الحالية، وإلى العديد غيرها من الحقائق التي صاحبت خلق السماوات والأرض أو التي تلازمهما اليوم، أو التي سوف تحدث عند إفناء الكون، هو من أعظم الشهادات بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ولا يمكن له أن يكون كلام أحد غير الله، كما يشهد لهذا النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بأنه كان موصولا بوحي السماء، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض، حيث انه لم يكن لأحد من الخلق علم بهذه الحقائق الكونية الكبرى في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله.
وتشهد هذه الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وأمثالها من الآيات القرآنية الأخرى المتعلقة بالكون وظواهره وبعض مكوناته بالدقة والشمول والكمال، وبالصياغة المعجزة التي يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع المستوى العلمي للعصر، وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أبلغ جوانب الإعجاز في كتاب الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com